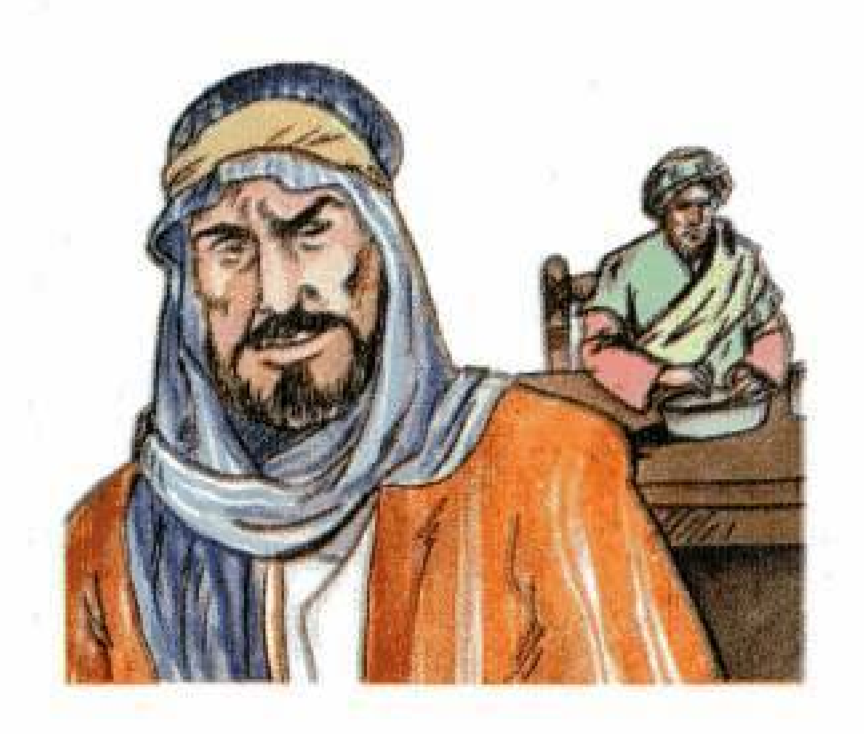
مكتبة مصر
تقدم
مجموعة محمد وصحبه

عطف وبر

إعداد : أمير سعيد السحار



الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقى بالفجالة

رسوم
عبد الرحمن بكر

عطفٌ وبِـر .. !!

كان أبو عبدِ الرحمنِ ، عبدُ اللَّهِ بنُ دينارٍ رضـىَ اللَّـهُ عنـه ، مولىً لعبدِ اللَّهِ ابنِ عمرَ بنِ الخطاب رضى اللَّهُ عنهما ، وكـان ابنُ دينارٍ يحبُّ مولاه حباً كثيراً ، فيـه وفـاءٌ وإخـلاصٌ ، بُنِىَ على خيرِ صلةٍ بـين الإنسانِ وأخيـه الإنسانِ، ألا وهى صلةُ الأُخوةِ فى اللَّهِ ، التى لا تأبَه بهذا الحُطامِ الفـانِى ، ولا تنظرُ إلى الدّنيا نظرةَ التّقديسِ والعبادةِ ، كمـا ينظرُ إليهـا الأغبيـاءُ الجاهلون ..

وكانت خُطةُ مولاه تُعجبهُ أيما عجَب ، فهو رجلٌ فـى جميعِ أحوالِه ، شجاعٌ مِقدامٌ ، بيدَ أنه عجِب منه حينما خـرج معه ذاتَ مرّةٍ ، وكان عبدُ الله بنُ عمرَ عنده حمارٌ جميـلٌ ، يتروّحُ عليه إذا ملَّ ركوبَ الرّاحلةِ ، وعمامةٌ يشدُّ بها رأسَه . !

فكان إذا خرج إلى مكةَ ، لأمرٍ من الأمورِ ، ركب الحمارَ ، وشدَّ رأسَه بالعمامةِ ، ويمضى على بركـةِ اللَّـهِ .. وليس من عادةِ العربِ ركوبُ الحميرِ. فإنها قصيرةٌ لا تدعو إلى الاحترامِ





والتَّبجيلِ ، وإنما هم قد اعتادوا ركوبَ الجمالِ .. الإبلِ العاليةِ الثَّمينةِ . والخيلِ السَّريعةِ القويةِ . أما الحميرُ تلك التى لا تكاد تظهرُ من الأرضِ ، فلا يَرى فيها العربىُّ لذَّةً حين يركبُها ، ولا متعةً حين يملكُها . إنه يريدُ العظمةَ والكبرَ والخُيلاءَ ، تلك طبيعةٌ فى نفسِ العربىِّ لا يجد عنها مَحيصًا .

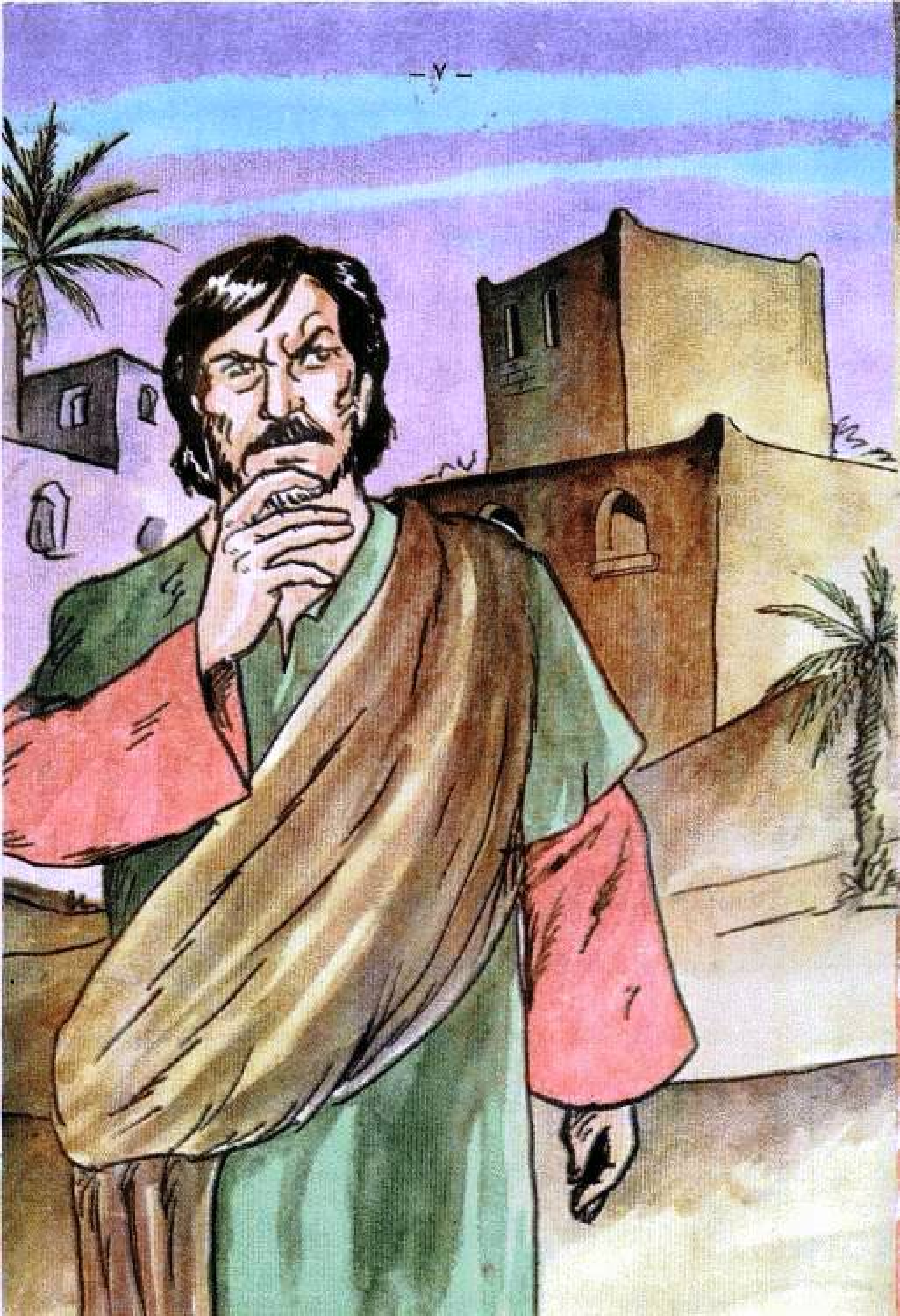
ولكنَّ عبدَ اللَّه بنَ عمرَ ينزَع إلى الراحةِ أحياناً ، وفى ركوبِ الحميرِ راحةٌ وهدوءٌ . فهى لا تهتزُّ كالإبلِ ، وهى لا ترتجُّ كالخيلِ . والراكبُ عليها لا يكاد يشعرُ بشىءٍ من التَّعبِ أو المشقةِ ، وكأنما هو جالسٌ يستريحُ ، بينما هى تنسابُ من تحتهِ انسيابَ الرَّقطاءِ فى الرِّمالِ. وعبدُ اللَّه بنُ عمرَ لا يأنف كما يأنف العربى القُحُّ لأنه رجلٌ هذَّبه الإسلامُ، ونزع من نفسِه تلك العاطفةَ العجيبةَ ، والإحساسَ الغريبَ ، الذى يسيطرُ على نفسِ كل فردٍ من هؤلاءِ الأعرابِ ، دونَ قصدٍ أو تكلّفٍ.

وبينما هو فى طريقِه إلى مكةَ على حمارِه الجميلِ ، وقد شدَّ رأسَه بعمامتِه الخاصّةِ ، إذ به يرى أعرابياً ماراً بجانبِه . فارتبكَ ابنُ عمرَ وبانت عليه علائمُ التّفكيرِ ، وكأنما هو يفكّرُ بسرعةٍ فى أمرٍ ذى بالٍ . ترى من يكون هذا الأعرابىُّ . يُخيَّل إلىَّ أننى أعرفُه . هل من اللاّئِق أن أسألَه لأتأكدَ أنه هو ابنُ صديقِ والدى عمرَ رضىَ اللّهُ عنه أم لا ؟ وافرحتاهُ إذا كان هو ابنَ صديقِ والدى عمرَ بنِ الخطابِ . إننى يجب علىّ إكرامُه ومحبتُه والبرُّ به. أجل فمن أبرُّ ، إن لم أبرَّ أصدقاءَ والدى وأحبابَه وآباءَهم وأحبابَهم ؟ أعتقدُ أن البرَّ بأصدقاءِ والدى وأحبابِه والمقربين إليه وبأبنائِهم كذلك برٌّ به بعد مماتِه . وهل هناك فرصةٌ أبلغُ وأعظمُ ، وأجلُّ من هذه الفرصةِ . ليته هو .

وسأل عبدُ اللّهِ بنُ عمرَ الأعرابىَّ قائلا :

ـ ألستَ فلانَ ابْنَ فلان ؟ .

وذهَل الأعرابىُّ حينما سمع هذا الصّوتَ موجَّهاً إليه ، من رجلٍ لا يعرفه، ثم قال فى دهشةٍ :



- بلى ..

وهنا قفزَ عبدُ اللّهِ بنُ عمرَ من فوقِ حمارِه ، وكلُّه الفرحُ والسّرورُ الغامرُ ، وكأنما عثَر على ضالةٍ ينشدُها من طويلِ الأزمانِ والآبادِ . وقال للأعرابىِّ فى احترامٍ ووقارٍ :

- اركبْ هذا .

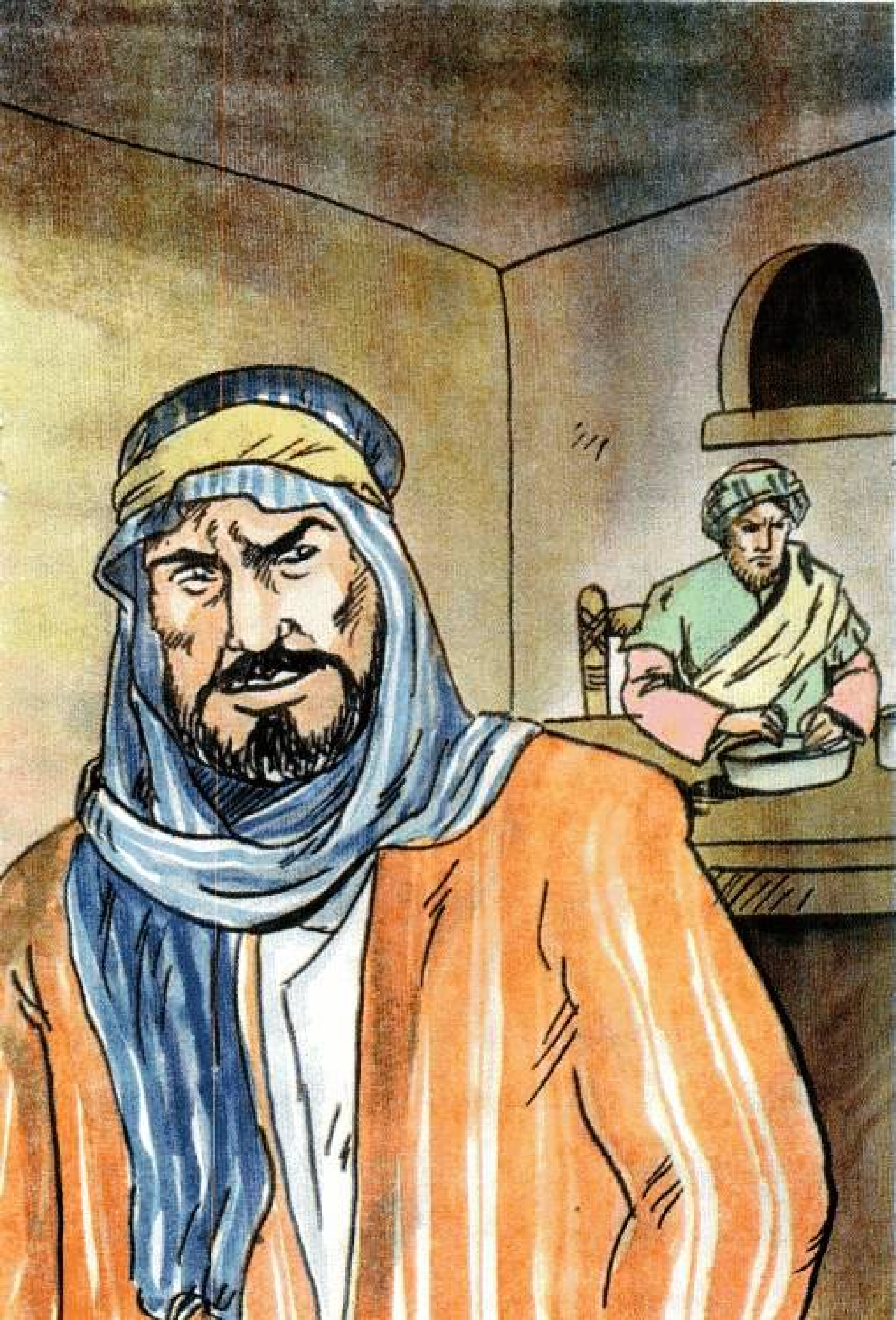
وقدّم إليه الحمارَ ، وخلع العمامةَ من على رأسِه وقال :

- وخُذْ هذه ، اشدُدْ بها رأسَك .

عجِب الأعرابىُّ لهذا التّصرّفِ ، وقال فى نفسِه :

- كيف يفعلُ هذا شخصٌ لا أعرفُه ؟ حقاً إنه يعرفنى لأنه نادانى باسمى، ولكن هل أستحقُّ شيئاً من ذلك ؟ وخاصّةً وهذا الشابُ فى غايةٍ من الصّلاحِ والتّقوى كما يبدو من معالمِ وجهِه وسماتِه ، وهو من عِليةِ القومِ كذلك ، لما يبدو عليه من آثارِ النّعمةِ . إنه يُخيّل إلى أننى قد رأيتُه ولكن من أمدٍ بعيدٍ ، فهل يمكنُ أن أكونَ صادقاً فيما يخيلُ لى ؟ . واللّهِ إنْ صدقَ ظنى فهذا عبدُ اللّهِ بنُ عمرَ ، إنه فيه كثيرٌ من شبهِ





أبيه . وإن أباه رضى اللّه عنه كان من أعزِّ أحبابِ والدِى وأصدقائِه ، فلا مانعَ أنه يكرمنى لهذا، فيكون بذلك مكرِماً لوالده وباراً به بعد مماتِه ؟!

ولم تكن هذه حالُ الرجلِ فحسْب ، بل كانت هى حالَ عبدِ اللّهِ بنِ دينار كذلك ، الذى لم يَطقْ صبراً ، بل انفجرَ قائلاً فى دهشةٍ وعجبٍ :

ـ غفر اللّهُ لك ، أعطيتَ هذا الأعرابىَّ حماراً كنتَ تروحُ به عن نفسِك، وتستريح عليه ، وتجدُ فى ذلك لوناً من ألوانِ المتعةِ واللذةِ ، وعمامةً كنت تشدُّ بها رأسَك ، فلا ينالُك ألمُ الشمسِ وحرارتُها .. فكيف إذن تفعلُ يا سيدى ما فعلتَ ؟ كيف تسيرُ ماشياً .. وبغير عمامةٍ ؟! .

فصمت عبدُ اللّه بنُ عمرَ ، فى تفكيرٍ عميقٍ ، ثم قال :

ـ يا ابنَ دينار ، إن اللّهَ أودع القلوبَ محبةً وبرًّا ، وفاضل بينَ هذا البر ، وتلك المحبةِ ، فهناك أبرُّ البرّ ، وهناك أرفعُ أنواعِ المحبّةِ والود .. وإن من أبرِّ البر ، وأرفعِ أنواعِ المحبةِ ،

صلةَ الرجلِ أهلَ ود أبيه بعد أن يموتَ .

وتملّكت الدهشةُ ابنَ دينار ، وسيطر عليه العجبُ العاجبُ، ولم يعرفْ ماذا يقولُ .. وخُيِّل إليه أنه لم يفهمْ شيئاً مما قال ابْنُ عمرَ .. وإلا فكيف ينالُ الميتُ من عملِ الحي . إن الميتَ قد مات ، وانقطعَ عملُه من الدّنيا ، وليس للإنسان إلا ما سعى ، وقدّمتْه يداه . ثم ما هذه الفلسفةُ الدّقيقةُ ؟ برُّ أصدقاءِ الميتِ، ومودتُهم ، والعطفُ عليهم ، ومواساتهُم ، والنظرُ إلى محتاجهم بإشباعِه إذا جاع ، وكسوتِهِ إذا تعرّى . هذا كلُّه لا يُعتبَر برًّا فحسْبُ ، وإنما يعتبر من أبرِّ البر ؟ ! ولماذا ؟ لأنه برّ في ذاته ، ثم هو لأصدقاء الوالدِ الميتِ ، فكأنما يمتُّ إلى الإحسانِ والعطفِ ، والبرِ والرحمةِ والمودةِ ، لا بسببٍ واحدٍ وإنما بسببين . هذا وأيمُ الحقِّ غريبٌ وعجيبٌ ! ولكنه على أيِّ حالٍ ، له وجهٌ من الوجوهِ يُحمل عليه ، ويُفهمُ به ، ولكن مع طويلِ نظرٍ ، وكبيرِ عناء . ولماذا يُتعبُ الإنسانُ نفسَه في هذه الناحيةِ ، ويمضي مع الفكرِ في شتّى نواحيه ، ومختلفِ ضروبِه ، ما دام هذا فضلَ اللّهِ ؟! .. إنه الفضلُ الإلهي ،





لا أكثرَ ولا أقلَ ، وإن اللَّهَ ليبسطُ موائدَه للناسِ ، وما عليهم سوى الاستجابةِ مخلصين .. !!

ولمحَ عبدُ اللَّه بنُ عمرَ ، علائمَ التفكيرِ على وجهِ ابنِ دينارٍ، فقال له مطَمئناً شارحاً :

ـ لقد سمعتُ يا ابنَ دينارٍ الرسولَ الكريمَ صلواتُ اللَّهِ وسلامُه عليه يقول :

«إن من أبرِّ البرِّ ، صلةَ الرّجلِ أهلَ ودّ أبيه ، بعد أن يولى» !

وكأنما وقع ابنُ دينارٍ فى ورطةٍ أخرى ، وانبهمت ، أمامَه مسالكُ التّفكيرِ، وخيِّل إليه أن ابنَ عمرَ يلغُز معه ولا يشرحُ. أجل ، فهذا الأعرابىُّ لا يَعقلُ أن يكونَ صديقاً لعمرَ بنِ الخطابِ رضىَ اللَّه عنه ، فهو أعرابى لا تبدو عليه معالُم الشيخوخةِ ، ولكنه فى مقتَبَلِ العمرِ ، وريعانِ الشبابِ ، وما كان يجدُر بعبدِ اللَّه بنِ عمرَ أن ينزِلَ عن حمارِه ليركبَ هذا الرجلُ ، وأن يخلعَ عمامتَه ليشدَّ بها هذا الأعرابى رأسَه ،

ويُؤْثِرَه على نفسِه في وقتٍ هو في أشدِّ الحاجةِ إلى الراحةِ والهدوءِ ، والاحتجابِ من الشمسِ التى تفتِكُ بالرءوسِ .

ورأى ابنُ عمرَ ما يعتملُ فى نفسِهِ فقال :

- إن أباه كان صديقاً لعمرَ رضى اللّهُ عنه . !

وانقشعت ظلمةُ الريبةِ والشّكِ ، عن قلبِ ابنِ دينار ، وفهِم كلَّ شيءٍ وطرِب لهذا الفضلِ الإلهىّ الذى يسوقُه اللّهُ على يدِ رسولِ اللّهِ صلى اللّهُ عليه وسلّم ، وعقدَ النيّةَ على إكرامِ كلِّ أصدقاءِ والدَيْه ليُكتبَ لهما فى سجلِّهما حسناتٌ كثيرةٌ ؛ ويناله هو من وراءِ ذلك عظيمُ الأجرِ وجزيلُ الثوابِ .. !!

